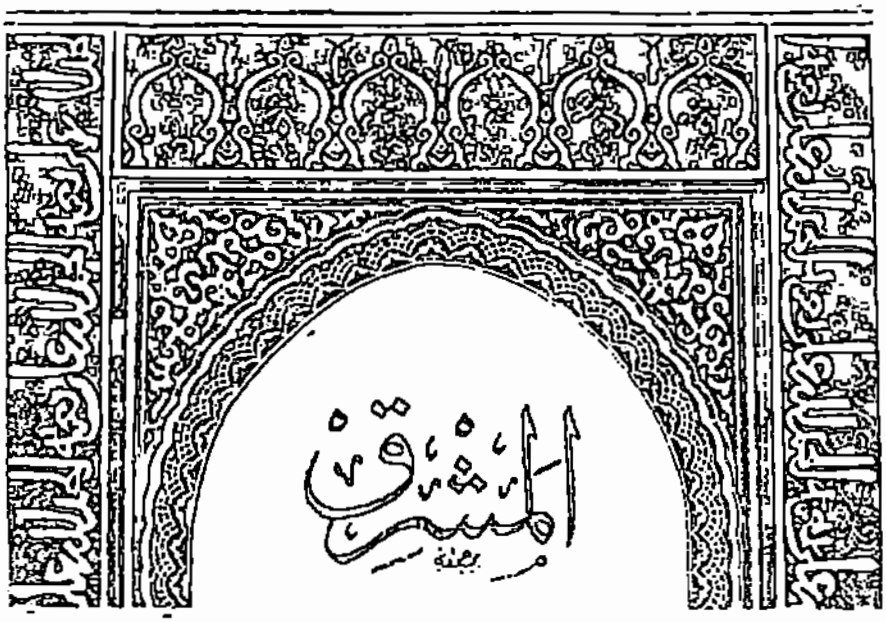

السنة الخامسة والثلاثون
نيسان — حزيران ١٩٣٧

الاب هنري لامنس

١٨٦٢-١٩٣٧

مثلث الاب فردينان توتل اليسوعي

الى رحمة الله تعالى، انتقل الاب لامنس في الساعة التاسعة من مساء الجمعة ٢٣ نيسان. فنعته الجامعة اليسوعية الى اهله واخوته . ورددت الصحف نعيه الى الشرق والى الغرب . فحركت في النفوس لوعة الأسف على فقده راهباً فاضلاً ، وكاهناً عالماً ، واسع المعارف ، متخصصاً في الدروس الشرقية العربية من جغرافية وتاريخية ، مسيحية واسلامية .

***

كتب الاب لامنس عن رجال الحملات الصليبية ، فذكر الفلمنك اجداده ، مَن شدّوا الرحال الى الاراضي المقدسة جنوداً وامراء ، وخرجوا من سهول الشمال البلجكي ، فهجروا الآل ، وتركوا المال ، وتغرّبوا ، ووجهُهم الجهاد في سبيل الله واليوم الاخير .

وان تلك العاطفة النبيلة التي دفعت بالسواد الاعظم من رجال الغرب الى قبر المسيح انما هي التي دبّت في قلب الفتى ، واوحت اليه التضحية بحياته وبما فيها من مواهب منّ بها الرحمان عليه ، ليسيرَ جندياً ، لا بالسيف والرمح ، شأنَ الصليبيين ، ولكن بالقلم ، فيفتح فتوحات العلم . في الخامسة عشرة من عمره ترك مدينة غاند (Gand) ونورها المتضائل ما وراء الضباب ، وقد ابصره في حضن عائلة مسيحية كاثوليكية في ١ تموز سنة ١٨٦٢ واتى لبنان وطناً ثانياً له واحبه حب الولد لبيته ؛ أحب سكانه ولغته وتقاليده وكل ما اتصل به في الزمان الحاضر والغابر . ونال ايضاً محبته .

***

دخل هنري لامنس الكلية اليسوعية في بيروت تلميذاً . وفي ختام السنة ١٨٧٨ المدرسية ، في ٢٢ تموز ، في حفلة توزيع الجوائز ، سمع قراءة اسمه في ذكر كل مادّة من مواد الصف الثالث : التعليم المسيحي ، والامتياز ، والاجتهاد ، والترجمة اللاتينية ، واليونانية ، والتاريخ ، والجغرافية ، والحساب .

وفي ثاني ذلك اليوم ، في ٢٣ تموز ، كان في دير الابتداء . في غزير سالكا في الشرق الطريق التي سلكها شقيقه اليسوعي في الغرب ، فنشأا اخوين من اسرة واحدة على حبّ الزهد والتضحية ، ونبتا غصنين نضيرين على أروعة واحدة . فانتج كل منهما ثماره في حينه ، وفي البلاد التي اختارتها له العناية .

قضى الاب لامنس سنتين في الابتداء . ومن بعدها خمس سنوات في درس البيان والخطابة واللغات . وهناك كان الاب فرنسر ، استاذ اليونانية ، غيوراً على تقدم تلامذته . فشروحات وشروحات من مؤلفات هوميروس وسوفوكل وديموستين . . . وغيرهم من ائمة الكتبة ممن يثقل درسهم على الطلاب ! اما الفتى لامنس فينكب عليهم ، ويتعمق باليونانية فيقبض على ناصيتها ، وسوف يقرأ كتاباتها الاثرية على صخور لبنان وفي كهوف الشمال السوري ويفسرها ويناقش العلماء الاثريين في مواضيعها .

في السنة ١٨٨٦ ، عاد الاب لامنس الى الكلية في سلك المعلّمين . فقضى سنة في تعليم الصف الثالث ، واربعاً في تدريس البيان . وكان منذ دخوله لبنان قد صرف

جهوده الى تحصيل اللغة العربية فتعلّمها ، لا على النسق الجاف العقيم ، ولكن بطريقة علمية اختطّها لذاته بوفرة ذكائه وقوة عزيمته ، فسارت به من معرفة المفردات وتراكيبها الى ضبط اصول فقهها ، الى تفسيرها في متونها عن أئمة المؤلفين . فمكنته ، وهو الافرنجي ، من القيام بمهمة تلقينها التلامذة اللبنانيين في الكلية . وقد حفظوا للاب لامنس من ذلك العهد ذكرى الاديب المتوقد ذكاء ، المتضلّع من المواد الموضوعة للدرس .

ولم يبلغ الثلاثين من عمره الا وقد نشر مؤلفات كانت نتيجة من نتائج اجتهاده ، اولها كتاب الفرائد في الفروق (سنة ١٨٨٩) وفيه مواد شهدت له بسعة المطالعة ودقة الملاحظة ، جمع شتاتها عن اللغويين ورتبها الترتيب العلمي وضبط احكامها اخذًا عن كليات ابي البقاء ، وتعريفات الجرجاني ، وعن مؤلفات نور الدين الجزائري ، والحريري ، والطوسي ، وابن قتيبة ، والسيوطي ، والفضل ، والليث ، والثعالبي ، وابن الاجدابي ، والتهاوني ، وابي بكر الخوارزمي ، والشريشي ، والهمذاني ، والاصمعي ، وابي زيد وغيرهم . فألف من اقوالهم ١٦٣٩ بندًا كل بند حوى المترادفات وفروقها وعلّمنا من كتابه كيف نغربل الالفاظ فنحفظ منها ما يصلح لدقة المعنى وتنبذ الحشو نبذ النواة .

وكان ذلك الكتاب آلةً لوضع مؤلَّف غيره اتى به الاب لامنس على درس الالفاظ الفرنسية المشتقّة من العربية ، مقدّماً عليه بقواعد عامة في الاشتقاق ، معالجًا امر الالفاظ التي سبقه المستشرقون الى معالجتها فنقد اقوالهم وكملها ، واستنبط من سعيه فرائد مكّنته من خوض المناقشة اللغوية مع ائمة علم اللغة المعاصرين . وقد يرجعون الى مؤلفاته حجة .

وطبع من ثم كتاب الترجمة بجزءيه . وهو خير ما يوضع بين ايدي تلامذة الصف الرابع والثالث ، توطئةً للبيان وهو يفيدنا عن اساليب المؤلفين الذين اتخذهم لامنس نبراساً في طريقه الى علم الاستشراق . فكانت الجغرافية ، والتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، المادة التي انتخبها وعوّل عليها في تخريج العقول وتحصيل الالفاظ .

من السنة ١٨٩١ الى السنة ١٨٩٧ تنقّل الاب لامنس بين الشرق والغرب .

فدرس اللاهوت في انكلترة ، وفي بيروت. وتولى ادارة البشير مرتين (١٨٩٤ و ١٩٠٠ — ١٩٠٣) فكبّر حجمه . وعكف على الدروس وحده في لوقان (١٨٩٥) وقضى الابتداء الثاني في ڤينة ١٨٩٦ ، عاصمة النمسة ، حيث اتقن اللغة الالمانية. وعاد الى بيروت سنة ١٨٩٧ ، فعُهد اليه بادارة الدروس والنظام في الكلية . لكن ضعف قواه البدنية حال دون بقائه في الوظيفة مدة طويلة. على ان تأثيره الطيب في التلاميذ دعا الرؤساء بعد الحرب الى اقامته مديراً لجمعية التلامذة القدماء. ولا وصف افصح للوداد الذي حفظوه للاب لامنس من كلمات التأبين التي القاها ، في مأتمه ، السيد الفرد نقاش في ٢٥ نيسان ، قال:

« لا كلام في ساعة الوداع الاخير الا كلام الفؤاد .

لقد حمل الاب لامنس في محبتنا واحترامنا محلا رفيعاً. نذكر له مبرّاته ونبكي . كم من شبان ساعدهم في الاحتضار ، كم من امهات ثكالى، وآباء مكلومين، عزّاهم وقرامم في مرارة الاحزان والشدائد . . . لم يجاهر الاب لامنس بعواطفه . وحالت بصيرته وحسّه النقاد دون تكلفه التظاهر، فكانت ارشاداته ومحاضراته محدودة ضمن حدود الرزانة والمنطق . يسمعه السامعون ويودّون لو انه اطال فيها واسهب .

هو العالم المتضلع من تاريخنا ، الدارس احوالنا وتقاليدنا ، وقف الى جانب اللبنانيين في ساعات حياتهم السياسية المتعثرة المظلمة ، فتلمس فيها الطريق ، وهداهم اليها . وكانت نصائحه درر حكمة ضمت في سلك المنطق . »

وسنة ١٩٠٣ اقيم الاب لامنس معلماً للتاريخ والجغرافية. وسنة ١٩٠٧ دخل كاستاذ معهد الدروس الشرقية المؤسس حديثاً في الكلية. فتوفرت بين يديه وسائل الاختصاص في دور الكتب وفي مرافق التعليم والبحث والتأليف. فاحسن استعمالها ضمن دائرة محدّدة تطوّرت فيها جهوده واعماله ، فرقته من مطالعة الى مطالعة ، ومن علم الى علم ، حتى تعمق في البحث والتنقيب والاستنتاج وصار حجة زمانه في اختصاصه .

* * *

بين يدينا مؤلفاته. لقد قرأنا منها الكثير واعدنا قراءته . واعملنا القلم في شيء منها ، فوضعنا لها الفوارس، وعنها اقتبسنا. فما هي الغاية التي توخاها فيها صاحبها ؟ وباي وسائل حاول البلوغ اليها ؟ واية هي النتيجة التي استنبطها منها ؟ وما كان تاثيرها في الدروس الشرقية عامة والاسلامية خاصة ؟ عسى ان نوفق في الجواب

عن هذه الاسئلة فنقوم بواجب المعروف ذكرى للعالم وفضله ، ونؤدي صفحة لتاريخ الاستشراق.

غاية الاب لامنس : درس شخصية محمد

تنحصر اعمال الاب لامنس العلمية الاختصاصية في دائرة خاصة قد يحق لنا ان نسميها « المعضلة الاسلامية » . تقتضي جهوداً بذلها طيلة حياته ، وتشمل مؤلفات منها ضخمة ، ومنها رسائل وجيزة جال بها حول حلّ اللغز التاريخيّ الدينيّ الكبير ، وهو شخصية محمد وقضية انتشار الدين الاسلامي. اقبل على ذلك المشروع الخطير بهمة شماء نالت اقصاها من المواهب العلميّة السامية ، ومن المبدأ الذي اتخذه مهاداً لحياته الكهنوتية اليسوعية بالّا يكتفي بالقليل حيث المجال واسع للعمل، والامل بالاستفادة عظيم ؛ وايّ مجال اوسع من درس الدين الاسلامي في علله ! واي امل اعظم من امل الساعي في سبيل النور ! وان ذلك الدين مجسم في الوف المواطنين من سكان لبنان وسورية ومصر . نظر اليهم الاب لامنس لا نظرة الازورار، ولكن العين بالعين والودّ في القلب. وما كان اصفى نظره وما اودّ قلبه لمن ساروا طالبين الهدى من التاريخ !

مضى الاب لامنس في ابحاثه يلتمس حقيقة الدين الاسلامي فيميز بها النور من الظلام. لن يوفق الى ابراز شخصية محمد في صفحة التاريخ الوضاح ، لكنه تشع غيوماً تلبدت مع الايام ، فوارت صورة من قلب جزءاً من العالم ظهراً لبطن.

ورب معارض يقول: وهل من حاجة الى اكتشاف الشمس في الهجيرة ؟ الا يذكر المسلمون من حياة نبيهم ما يروي الغليل ويشفي العليل ! اليست السيرة مستندة الى اقوال الصحابة والشهود ؟ واي حقيقة تاريخية اقوى حجة من حجة الرواة اذا اجمعوا على قول واحد وهم كثيرون ؟

فيجيب الاب لامنس : ان آراءهم واقوالهم مرجعها واحد وهو القرآن. وما دام القرآن يأتي مصداقاً لكلامهم فهناك اساس للتاريخ متين. اما الحديث فادته وضعت اصلاً ، لا للتاريخ، ولكن للتشريع والتعليم والفقه. وقد تبين لنا هذه النظرية باجلى تبيان، بعد الكلام عن الوسائل التي تذرع بها الاب لامنس، وعن

الاسلوب الذي اتبعه في الوصول اليها.

وسائل الاب لامنس واسلوبه

ان العلامة نولدكه ،بعد ان تحقق العقبات القائمة المتوعرة الطريق الى معرفة شخصية النبي ، اجفل عن مواصلة البحث وقال انه قد عدل نهائياً عن محاولة كشف القناع عن سرّ محمد .

اما الاب لامنس ، وهو في قلب الشرق ، في لبنان ، بالقرب من المكتبة الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت،وغيرّ بعيدٍ عن القسطنطينية ومصر. فقد اقبل اولاً على درس الكتب الاسلامية في اصولها العربية ، وفي مؤلفات المستشرقين ، على اختلاف النزعات واللغات. وقد ذكرهم في مصادره واتخذ بعضهم مرجعاً خاصاً في المكتبة التي حفظها في غرفته الى آخر يوم حياته . واننا نذكر اسماءهم كما تتوارد الى الخاطر : ولهوسن ، شنوك هرگرونيه ، كايتاني ، نولدكه ، گويدي ، هوار ، مرگليوث ، سپرنگر ، وستنفلد. فاستوعب اقوالهم، واستقصى مباديهم ، ونقدها . واقتبس منها ما رآه صالحاً لدروسه ، موافقاً للحقيقة التي ينشدها . وقرأ الشعراء العرب الاقدمين ، واعمل الروية في دواوين الاخطل ، وعلقمة ، وفي حماستي البحتري وابي تمام ، وفي اشعار الخنساء ، وامية ابن ابي الصلت ، والنقاشي ، وزهير ، ولبيد ، وابن قيس الرقيات. اما كتاب الاغاني فقرأه ، وقرأه ، وقرأه ، الى الثاني عشرة مرة. واكتشف في قراءته الشعراء ما لم يكتشفه ابناء العرب انفسهم من تلميحات تاريخية وفوائد دبجها في تأليفاته شهادات بيّنات على صدق حجته. فاثار اعجاب احد علماء الازهر ، وقد وقف على تفسيره بعض الاشعار القديمة ، فقال: لقد سبقنا هذا الاعجمي الى فهمها .

واعظم ان الاب لامنس بذل جهوده في استغلال الشعر العربي القديم في سبيل معرفة اصول السيرة النبوية، لا لكون الشعراء كتبوا التاريخ ولكن لان اقوالهم صارت مادة دارت منها سوانح . فكان يعتمادها الاب لامنس ، وبها يهتدي الى معرفة الاخبار،يكتشفها تأويلاً او استنتاجاً من عبارة او من بيت يشف عن تزييف في الاصل ، او عن شعر هجاء ، او حماسة او فخر ، رجع بها الاب

لامنس الى اسبابها وفكّ لغزها، بموجب المبادئ التي توصل اليها. منها ان الشعراء كانوا ممقوتين من النبي ، فان حفظ لهم المحدّثون ذكرًا او قولًا فلم يحفظوه حبًا للشعر ، ولكن لغاية سياسية. وتوصل الاب لامنس في تحصيله الى تحليل الظروف والعلل التي قيل فيها الشعر ، فحفظه مادة تاريخية اكيدة صالحة لتوضع حجرًا في البناء التاريخي الذي اعده.

واذ حاول الكتابة في حياة محمد ، كان لا بدّ من درس البيئة التي عاش فيها ، والتعرّف الى الرجال معاصريه الكبار الذين اثّروا وتأثروا بالدعوة، وبانتشار الاسلام. فعمد الى المؤرخين والجغرافيين العرب والافرنج وقرأ المقدسي ، وابن حوقل ، وياقوت ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، والطبري ، والبلاذري، واليعقوبي ، والمسعودي الخ . فاستقصى الاخبار ، وقابل بينها وبين ما كتبه الرواد المحدثون كموسيل ، ووالتر . واستعان بتدريسه الجغرافية في المعهد الشرقي في الجامعة اليسوعية ، فدوّن دروسه في الحجاز ، وفي احوال الجزيرة الطبيعية من مناخ ومياه وآبار وغدران ومواسم ومراعٍ واشجار ونبات ، ومحصولات ، مع اختلاف المقاطعات بين جبال واودية ورمال وواحات ؛ ودرس اخلاق البدو وعيشهم قبائل تحت سيادة الاسياد ؛ وحالة المرأة بينهم اخذًا عما تعلّمه في قراءاته .

ولم تكن المطالعات التي ذكرناها الا سمكًا من نهر وخليجًا من بحر خاضه الاب لامنس في درس الحديث . وربّ قائل يقول : وما شان الحديث بينكم وقد وضع للفقه لا للتاريخ ؟ فالجواب ان الصحيح ، والمسند ، او السنن ، وسائر ما وضع من امثال ذلك انما لفقه الفقهاء ، كان الغرض منه تدعيم فتاويهم بركن غير متزعزع ، في نظر المسلمين ، اذا تحققوا نسبته الى نبيهم . فكانت من ثم جهود المحدثين ان يثبتوا سلسلة الشهادات وحلقاتها متصلة منهم عن اساتذتهم عن فلان عن فلان عن فلان عمن سمع او رأى محمدًا . فكان الحديث من قول او فعل ، اذا صحت نسبته الى نبيهم ، موجبًا على المسلم ذمةً ان يرضى بفتوى المفتي او بفقه الفقيه . فكتب المحدثون ودأبهم الفقه لا التاريخ . نعم ولكن عدم اكتراثهم لسرد الحوادث وتعليلها

شأنَ المؤرخين هو الذي جعلهم في نظر الاب لامنس حقلًا واسعاً مفتوحاً يستفيد منه، لا باستغلاله غلات وافرة، ولكن بالتقاط ما يعثر عليه فيه من سقطات الكلام، ومن تعليقات صدرت عفوًا من قلم المحدّثين وفي سياق التحرير عن غير قصد منهم. ذلك ما يسميه الافرنج سانحات الكلام (obiter dicta) ويحفظونه اثرًا مؤكدًا ومادةً حقيقة بالتاريخ.

وعليه ذهب الاب لامنس يطالع كتب الحديث ليلتقط فيها سوانح الفكر والخواطر. وما اوسع ما جرّده في تلك الناحية! بالامس دخلنا الغرفة التي لفظ فيها نفسه الاخير، فاعترتنا هيبة المقام، اذ رأينا على راس سريره مكتبته الاختصاصية وفيها من جملة ما فيها سنن ابي داود، وجامع الترمذي، واللآلي المصنوعة، وسنن النسائي، واتقان السيوطي، وميزان الذهبي، وتيسير الشيباني، وصحيح مسلم، ومصابيح السنة، ونهاية ابن الاثير الخ.

قرأ الاب لامنس وقرأ وقد طالما روّض النفس على القراءة[1]. فنهبت ساعاته وايامه. قرأ الحديث، وقرأ ما كان لا بد من مطالعته للكشف على غوامض اللغة العربية القديمة وهي الكتب اللغوية. وكانت دروسه السابقة قد مهّدت له السبيل اليها، فساعدته على فهم ما يعتاص فهمه على كبار الادباء من المتون. فجرد من المؤلفات المذكورة ما رآه مفيدًا لدروسه، واستعان بالمجموعات الادبية الكبرى كمؤلفات النويري، والقلقشندي، وابن عبد ربه، والجاحظ، على المقابلة والتمحيص. وبعد ان جمع تلك القلّة الوافرة رتبها الترتيب العلمي في قاموس الفه لنفسه. وهذا القاموس موجود بين يدينا، وهو الشاهد المصداق على كلامنا. فلم تنالِ فيما وصفناه من سعة مطالعاته. وما ان تراجع صفحةً واحدة من الوف الصفحات التي كتبها في كتبه العلمية حتى ترى كثرة المراجع التي يرجع بالقارئ اليها، ويسند اليها اقواله، فيدهش. وان يكن من العلماء مَن يرى غير آراء الاب لامنس في التاريخ، فكلهم لسان واحد في الثناء على ثروة معارفه ووفرة قراءاته.

---

١) كان ولعه فيها شديدًا منذ حداثته. قيل انه قرأ مؤلفات جول فرن الافرنسية، وهو ولد صغير في الصف السادس، وفيها اكتشف دعوته « الجغرافية ».

وزد على ذلك ان الاب لامنس كان اديباً لا تفوته رواية عربية او افرنجية ظهرت في مجلة او في نشرة حديثة. وان اخلاقه الراقية وشهرته واسفاره وصلت بينه وبين كبار المستشرقين في المكاتب والمعاهد العلمية والمؤتمرات ، فتذرّع بكل هذه الوسائل في الوصول الى غايته: كتابة التاريخ على اساس جديد.

النتيجة

اولاً : تجديد الدروس الاسلامية

كان الاب لامنس قد عوّل نفسه أن يشيّد لشخصية محمد بناية تاريخية على ذلك الاساس. ولكن حراجة المقام، ومراقبة الطباعة على ايام الاتراك، حالت دون معالجته الموضوع مباشرةً. فآجل العمل الى ان يكون الجو قد صفا للعلم والعلماء. ولم يأسف في التأجيل لادراكه ساتر ما يتطلبه ذلك التأليف من الاستعداد من جانبه ومن جانب القراء.

فلم ينشغل عنه ساعةً واحدة. وأهم مؤلفاته كانت بنايات كاملة بمفردها ، ومهدات للبناية الفخمة الكبرى التي ضحّى في سبيلها جهوده ، على امل ان يكتملها بحياة محمد. لكن المتاعب التي احتملها ، والامراض التي اعترته متوجة العملية الجراحية ثلاث مرات ، استعجلت شيخوخته وحلّت قواه ، واوهت ذراعه عن القلم ، فيموت والسيرة النبوية مفصّلة مطوية في دفاتره.

على ان المشروع ، وان لم يبلغ الى الغاية التي توخاها له صاحبه ، فقد يسير بتراجم في التقريب اليها ، وذلك في الكتب التالية:

١ً « الخلفاء الثلاثة : ابو بكر وعمر وابو عبيدة » . وهم الذين خلفوا محمداً مباشرةً ، وكانوا اركان الاسلام في اول فتوحاته.

٢ً « البادية والحيرة » . وكان الاب لامنس قد قرأ مقالاً عنها في مؤتمر المستشرقين في كوبنهاغ سنة ١٩٠٨ .

٣ً « اخلاص محمد في اعلانه الدعوة ».

٤ً « عمر محمد ».

٥ً « فاطمة وبنات محمد ».

٦ً « مهد الاسلام ».

٧ً « الطائف المدينة العربية قبيل الهجرة ».

٨ً « مكة قبيل الهجرة ».

٩ً « المعابد في غربي الجزيرة قبل الهجرة ».

هذه المؤلفات قدم عليها الاب لامنس بمقال نشره في مجلة الابحاث العلمية الدينية. فوضع اركان المبادئ التي استنتجها من دروسه، وهي كحجر الزاوية في مشروعه. وقد صارت هدفاً لاقوال ومناقضات العلماء الاسلاميين. ومهما يكن من صوابها او عدمه، فقد فتحت باباً للبحث جديداً وساعدت على ترقي الدروس الاسلامية.

ان اساس السيرة، في نظر الاب لامنس، انما هو القرآن وحده، كما قلنا سابقاً. اما مادة الحديث فليست مكملة لتعليمات القرآن كما اعتبروها الى عهد قريب منا، بل هي تعليقات عُلقت عليه وشروحات وحواشٍ زيدت على متنه لغايات، منها سياسية، ومنها دينية. فالسياسية متصلة بالانقلاب الاسلامي العظيم الذي حوّل مركز الخلافة من دمشق الى بغداد، وشاد اركان الدولة العباسية على انقاض الدولة الاموية. وللاب لامنس ابحاثه الخطيرة في هذا الفصل الداخل في تاريخ سورية. اما الغايات الدينية فقد عبّر عنها المستشرق الالماني بكر في كلامه على آراء الاب لامنس، ولم يخطئ في تعبيره، واليك معناه:

لما فتح المسلمون بلاد الشرق المسيحي واتصلوا بالمسيحيين، وتعرفوا منهم الى شخصية المسيح الالهية العجيبة، والى مصادر حياته التاريخية، وقابلوا بين تلك المصادر وتلك الحياة وبين ما كان لديهم من وثائق ثابتة عن حياة وشخصية نبيهم محمد، ساءهم ما رأوه من فرق بين اصول واصول. فذهبوا ينقّبون عن آثار نادرة مفقودة الّا في بعض الاحاديث الفقهية التي لم توضع تاريخاً لترجمة النبي، ولكن خططاً للاشتراع. فاتخذوها على علّاتها مادة للسيرة، مرتبينها الترتيب الزمني الموافق لحياة النبي قبل الميلاد، وفيه، وبعده، مقتبسين من القرآن التنويهات التي بها استضاءوا لينيروا طريقهم في تلك المجاهل. فخرجت السيرة من ذلك الاجتهاد مؤلفاً لا اساس فيه ثابت لدى الحقيقة التاريخية الّا ما كان في القرآن.

وقد يساعدنا على فهم نظرية الاب لامنس في هذا الصدد التشبيه بين هؤلاء المحدثين وبين مؤلفي الاناجيل الاسطورية كانجيل برنابا . فان هؤلاء لم يكتفوا بالتعليمات التاريخية الثابتة عن حياة المسيح ، كما هي في الاناجيل القانونية ، بل اضافوا اليها من عنديانهم ، ظنًا منهم انهم يخدمون الدين ، ولكنهم اساءوا اليه بتشويههم وجه الحقيقة .

وكذلك رواة السيرة فانهم نسجوا الاساطير على منوال المتن الاصلي ، مخترعين اسماء الرواة ، مطوّلين ما كان قصيرًا في الاصل .

اما قيمة اقوالهم في تمحيص الحقيقة التاريخية فتقدر على قدر اتصالها بالقرآن . ولا بد من التفتيش عن الاقوال والاعمال التي اتخذها المحدثون مادة لبنايتهم ، وفكها ، ودرسها حجرًا فحجرًا ، لا لهدم البناية ، ولكن لاختبار متانتها والتفريق فيها بين ما كان ناتجًا عن تطويل القرآن وبين ما كان مستقلًا عنه . وان هذه المادة ذاتها قد تصطبغ بصبغة النزعة التي قسمت المسلمين منذ البدء الى السنة والى الشيعة . فلا بد من عرض اقوال الفئتين على محك البصيرة ، والمقابلة بينها وبين ما يعرف من اوضاع التاريخ الثابتة لتحصيل الخطوط التي منها تتصور صورة محمد بملامحها الاصلية التي لا سبيل الى الشك فيها[1] .

كانت تلك النظرية الجديدة ، ولم تزل ، موضوعاً لمناقشة العلماء المستشرقين ، فتناولوها بالبحث في مجلات الاستشراق . وحسبنا ان نرسل اليها القارئ . على ان نتيجتها الاخيرة المخصبة كانت شحذ القرائح في الاجتهاد والدرس وترقية العلوم الاسلامية . هذا ما شهد به زعماء النهضة الفكرية في الجامعة المصرية خاصة .

وربما اجفل القارئ عن التعمق في هذا البحث لما يُخشى ان يؤدّي اليه من الشك المذموم . ولكن هيهات ان يفك العالم الحقيقي البناية لهدمها ويشيد صرحاً للشك . فانه اعاد النظر في موادها ، واقبل على وضع مؤلف يُعدّ من خيرة ما وضعه العلماء الاسلاميون في هذا الصنف اعني به كتابه في «الاسلام ومعتقداته ومؤسساته» . وصفه الاستاذ هرتن في مجلة الآداب الشرقية الالمانية فقال :

---

١) راجع Becker : *Prinzipielles zu Lammens' Stratistik*, dans *Der Islam*, IV, 263.

«لم يكن بين يدينا على الديانة الاسلامية كتاب شامل متين. نعم ان مؤلفات گولدسيهر وشنوك هرگرونيه جديرة بالاعتبار لانها بينت التبيان الكافي مزايا تطوّر التاريخ الاسلامي ، لكنها لم تحاول تصوير صورة الاسلام بجميع خواصها الجوهرية. فاتى لامنس وملأ ذلك الفراغ.»[1]

وضع الاب لامنس ذلك الكتاب اولًا لشبان الرهبانية، وهم في بكفيا (لبنان) يستعدّون بدرس اللغة العربية ومُنشآت الدين الاسلامي لخدمة هذه البلاد العزيزة. فالكتاب قريب المنال لغير الاختصاصيين. وهو ايضاً، كما لفت النظر الى ذلك الاستاذ هرتمن، على جانب قوي من الشواهد والحجج. مما يجعله علمياً بحصر المعنى. فهل يُنقل الى العربية كما نقل الى الانكليزية والى الايطالية ؟ ان ادباء المسلمين قد يقرأونه ويجدون فيه من الفوائد ما يحمدون الاب لامنس عليه. قال انيس النصولي في جريدة «بيروت» (العدد ١٨١ في ١ ايار ١٩٣٧) :

«وارحمتاه لك يا لامنس عدد حسناتك في كتابك الاسلام فقد اثرت لنا فصولًا عن الجزيرة العربية، ومحمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن الكريم، والمذاهب والتصوف والاصلاح والتجديد، مما يجعلنا مدينين لعلمك. واننا رغم مخالفتنا لك في كثير من آرائك لا يسعنا الا ان نكبر جهادك في هذه المواضيع».

النجم

ثانيًا : تاريخ الدولة الاموية ، واحياء آثار سورية ولبنان

لقد منّ الله على هذه البلاد بمحاسن طبيعية وافرة، وتراث تاريخي جليل من بقايا آثار الامم التي مرّت بها. وهي مهد الاديان التوحيدية ومنزل اديان غيرها، جعلتها محجة للشعوب، ومجذبة للعلماء خاصةً فيجدون فيها، ضمن اماكن محدودة قريبة المنال، مادةً للبحث لا نهاية لها.

واي درس احب الى الاب لامنس من درس هذه المنطقة التي عاش فيها منذ صباه. وفيه الاستعدادات التي ذكرناها، وتضلعه من اللغات الشرقية، فضلًا عن اللاتينية واليونانية القديمة، وسائر اللغات الاوربية الحية، ولديه من

[1] *OLZ.* 1927, 584

الوسائل التي تجود بها الرهبانية بسخاء على بنيها في سبيل بلوغهم النجاح في الخطة التي يسوقهم اليها ميلهم وفطرتهم.

عمل الاب لامنس بترتيب ورزانة واتقن اعماله ، كما لو كان كل عمل غاية لذاته ، واتقنها متسلسلة لغاية قصوى ، مكتلة دروسه في الاسلام ، ومستمدة من دروسه الاسلامية قوة على التخصص في تاريخ سورية ولبنان.

طاف ، ايام العطلات المدرسية، مشارق بلادنا ومغاربها . من بلاد انطاكية والجبل العجيب الى بلاد حمص ، حيث عيّن موقع قادش على العاصي ، الى الحدود السورية الفلسطينية، حيث تقفى آثار الصليبيين . فكتب عن تلك البقاع واخبرنا عن سكانها القدماء وعن الحاليين من نصيريين ويزيدية ومتاولة. ووقف واستوقف القارئ لا للبكاء على الانقاض والرثاء العقيم، ولكن لاحياء ذكر السلف ، والاشادة بامجاد الاولين استحثاثاً على الشغل.

وكان يعود من جولاته كالفلاح من حصاده، متأبطاً حزمة التعليقات، فيدرس سنابلها ويغربلها ويضيفها الى اهرائه ، ومنها اخرج مؤلفاته في الدولة الاموية.

واعلم انه سلك، في السبيل اليها، الطريق الواصل بين الجزيرة والشام، اي ان دروسه الاسلامية استفادت من معارفه السورية وافادته في التنقيب على حقيقة تاريخ بني امية.

قال في كتابه «سورية» (١ : ١٠٥)

« لما انكسر الامويون في موقعة الزاب ، في ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠، اقبل اعدائهم بنو العباس يفتكون فيهم فتكاً، فطاردوهم في مصر ، وفي العراق ، وفي الشام . ومدّوا لهم الحبائل وعللوا بقاياهم بالعفو ، فاخرجوهم من مخابئهم ، وابادوهم عن بكرة ابيهم ، وطرحوا اشلاءهم للكلاب . وشهروا الحرب على موتاهم ، فنبشوا جثثهم من القبور واحرقوها. ودمروا قصورهم، وخربوا دورهم. وصار اسم بني امية لعنة ونقمة عليهم.»

وان هذا الوصف الوجيز خلاصة تدل على ما حدث لذكر بني امية في كتب مَن كتبوا ، على العهد العباسي ، متأثرين بنفوذه السياسي. ولما كانت نزعة تلك الكتب كلها، او تقريباً كلها، مشيعة للدولة المالكة، ففيها وجه الدولة العباسية

مبيض، وذكر بني امية مسود، ووجه الحقيقة التاريخية مشوه، حتى صارت افادتها عن تاريخ القرون الهجرية الاولى مكذوبة، واوجبت على العلماء اعادة النظر فيها ودرسها الدرس العلمي، تمييزاً بينها وبين الاخبار الصادقة. وقد استعد الاب لامنس لذلك الدرس بالعدة التي ذكرناها عند كلامنا على بحثه تاريخ الدين الاسلامي، فاقبل على معالجة تاريخ الدولة الاموية عن فهم وحسن تقدير. فوضع مؤلفاته في هذا الصدد واليك اهمها: خلافة معاوية الاول. وخلافة ابنه يزيد الاول. وترجمة معاوية الثاني آخر السفيانيين ومروان الاول. اضف اليها دروساً في زياد ابن ابيه، والمحادثات الجغرافية في الاقطار السورية، وغيرها مما نشره في المجلات وفي دائرة المعارف الاسلامية. ووضع سنة ١٩٢١ سفره الجليل: سورية وخلاصة تاريخها. فبيّن بالاستناد الى اوثق المصادر محاسن السوريين، وان لمعاوية الاموي الفضل في تأسيس الدولة العربية، وفي تنظيم البلاد التي فتحها المسلمون. حتى استتب لهم الامر وبسطوا سلطتهم على الخافقين. وكان العنصر السوري فيهم كالخميرة من العجين. فمنه جيّش معاوية جيوش الفتوحات، وعليه اعتمد لثقافته وذكائه وطاعته. وبه اوصى ابنه يزيد قبل الوفاة. وعامل اهل الذمة بالحكم والرفق، واحسن السياسة.

ومسّ الاب لامنس في دروسه مواضع فتحت باب الجدل بينه وبين الادباء. فعالج اصلية الروم الملكيين في بلادنا، وبيّن انهم آراميون اصلاً، وكذلك قضية المردة او الجراجمة فاثبت انهم غير الموارنة، وان الطوائف المسيحية كلها من اصل آرامي، وسار الى ابعد من ذلك داعياً السوريين اجمعين الى القول باصلهم الآرامي الجامع بين عناصرهم. وكان من اكبر الدعاة الى الاتفاق والتآخي.

في ادارة المشرق

سنة ١٩٢٧، توفي الاب لويس شيخو، مدير مجلة «المشرق»، فعهد الرؤساء بادارتها الى الاب لامنس. كما كانوا عهدوا اليه منذ ثلاثين سنة بادارة «البشير». وهذا المستشرق الكبير كان يوسعه ان يضع كتبه باللغة العربية. لكنه ابى لتكون آلة لثقافة واسعة فحررها بالفرنسوية وعوّل على قلم غيره في

ترجمتها. تولى شؤون المجلة باهتمام فلم تمض سنة من سنيها العشر الاخيرة الا وله فيها المقالات اللذيذة يذكرها القراء بالاعجاب والشكر. واكثرها تاريخية موضوعها مقتبس من ماجريات اليوم. منها ما يؤلفه جديداً، ومنها ما يجدّد اصله عن احدى المقالات العديدة التي نشرها في المجلّات الفرنسية وظلّت مجهولة من قراء العربية، يعيد فيها النظر ويعمل فيها القلم، ويقدمها طعاماً مستطاباً.

الى ذلك العهد تعود المقالات في «موتمر بال الصهيوني»، و«مسالة الانجدية في اللغات التركية»، وفي «بلاد الافغان وملكها الشاب» و «ابن سعود والوهابيين» وفي «واجب درس تاريخ بلادنا» وفي نقده «كتاب النكبات» وهو الاجنبي اصلاً احتج على ابن البلاد باسم العلم والكرامة على تحقير سمعتنا وتسويد صفحتنا. وكتب ايضاً في «بلاد العرب السعيدة»، وفي «السوريين في فرنسة في القرنين السادس والسابع للمسيح»، وفي «اسرة القديس يوحنا الدمشقي وفي «انطاكية والسياحة»، وفي «دمشق العاصمة»، وفي «سورية زمن الفتح العربي» وفي «العناصر الفارسية في لبنان» وغيرها ... قدمها للطبع وكان كالعامل الجبار الذي بلغ غايته، وعجن المادة فلانت بين يديه فجبلها من غير عناء ولا تعب. الى ان شلّت يده برجفة مرض الفالج، فكفّ عن التحرير ولكنه ظلّ مراقباً حركة النشر في المجلة.

***

وآخر كلمة سطّرها في حياته كانت يوم الخميس ٢٥ اذار ١٩٣٧، في عيد البشارة. حملوه على الكرسي الى موضع الحفلة التي اقيمت في الجامعة عند عتبة دار الكتب الكبرى التي اخذوا في بنايتها، فوضع السفير دي مارتيل صك التدشين في حجر الاساس موقّعاً باسمه واسماء الاعيان الحاضرين من رجال الدنيا والدين. وتقدّم الاخ دلال اليسوعي، رفيق ومرّض الأب لامنس والمتفاني في خدمته، وسند يده الضعيفة. لقد وقع الاب لامنس اسمه في ماضي حياته على عشرات المجلدات والرسائل. وها انه يوقع اسمه للمرة الاخيرة على صكّ تدشين المكتبة، فيصل بين ماضي الجامعة التي نالت منه شهرةً وعزّاً، وبين عصرها الجديد المقبل برجاله واعماله على بركة الله!

ما اشد ما كان حرص العامل الجبار على ساعات ايامه ، لما كان متمتعاً بقواه البدنية . اما الآن ، وقد حبسه مرض الفالج عن العمل ، فيقضي الساعات الطوال ساكتاً صبوراً لا يتذمر ولا يتضجر . وان له من حسن الذاكرة وتوقد الفؤاد ما يجذب اليه الاخوة والاصدقاء ، فيستشيرونه ، ونصائحه نور ، وكلماته درر . اما سكوته ففيه هيبة العلم وجلال القداسة . الى ان وافاه الاجل .

لامنس في ادارة المشرق يذكرنا بشيخو . كلاهما يستريحان الآن في مقبرة الجامعة ، تحت الكنيسة ، في مصاف الرهبان مؤسسي الجامعة وعمالها المنتقلين الى دار البقاء .

شيخو ولامنس كلاهما دخلا الرهبانية في عنفوان الصبا وضحيا في خدمة الدين والعلوم الشرقية بزهرة الشباب ، وقوى الكهولة ونضج الشيخوخة الوقور . شيخو اتى من الشرق ، ولامنس من الغرب . وكلاهما تفانيا في خدمة النفوس بالوعظ والتعليم ، واضاءا كالنبراس في ظلمات التاريخ الشرقي . شيخو كتب عن الاسلام متوسعاً في الدروس النصرانية باللغة العربية . ولامنس كتب عن النصارى متخصصاً في الدروس الاسلامية باللغة الافرنسية . شيخو جوّاب المكاتب ، غزا الغزوات في بلاد الفرنجة ، والشام ، وما بين النهرين ، والهند ، وعاد بالمخطوطات ونشرها . لامنس اقبل على تلك الوثائق فانعم فيها النظر ودقّق وغربل وجمع والّف .

وكما ان الحكومة اللبنانية منحت الاب شيخو مدالية الاستحقاق اللبناني ذات السنف تقديراً لفضله وخدماته ، كذلك غلقت على صدر الاب لامنس مدالية الاستحقاق اللبناني الذهبية . وكان الاب لامنس قد نال من حكومة بلاده البلجكية مدالية ليوبولد ، ومن الجمهورية الافرنسية وسام جوقة الشرف .

عند ضريح الفقيد الوقور ، اخينا العزيز ، نركع طالبين له الرضوان ، ولنا السير في تقفي آثاره لمجد الله الاعظم !